

مراثى الأندلس

للشعر الأندلسي خواصه التي تميزه من بقية تراث الشعر العربي . وليس من الصعب أن ندرك أسباب هذا الامتياز ؛ ففوق الأندلس في مشارف أوربا الجنوبية وظروفها الجغرافية والسياسية والاجتماعية ، واستزاجها بتيارات التفكير والحضارات الأوربية ، وصمغها الطويل مع أسبانيا النصرانية ، هذه العوامل كلها أسبغت على الشعر الأندلسي ألوانه وخواصه التي يمتاز بها .

وكما أن الشعر الأندلسي يبدو في مواطن الوصف والمديح والغزل في ألوان زاهية بفيض رقة وطرافة وابتكاراً ، فهو يبدو في مواطن الألم والتفجع فياض الكتابة والحزن . وتمتاز المراثى الأندلسية السياسية بروعة خاصة ، ويتمثل فيها كل ما في تاريخ الأندلس من الحزن . ولم تصل المراثى القومية في مجتمع إسلامي قدر ما وصلت إليه المراثى الأندلسية من روعة التعبير وشدة اللوعة وعمق التفجع . وإن منها ما يزال يحتفظ حتى عصرنا بكثير من روعته ، ويشير في النفس بالغ الألم والأسى .

وقد بدأت هذه الصبغة المحزنة تغلب على الشعر الأندلسي منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، أي منذ تبدت بأساة دول الطوائف في أطوارها المزعجة ، ومنذ بدأت أسبانيا النصرانية تنتزع القواعد الأندلسية العظيمة ، وأخذت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت على المنحدر تواجه خطر الانهيار القومي . وكان سقوط طليطلة في يد الأسبان في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) أول ضربة مؤلمة أصابت الأندلس ، وكان أول محنة قومية حقيقية أثارت لوعة الشعر الأندلسي . ومما قيل يومئذ في رثائها قصيدة طويلة هذا مطلعها :

شكلك كيف تبسم الثغور سروراً بعد ما يستث ثغور
أما وأبي مصاب هد منه ثبير الدين فاتصل الثبور (١)

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٩٢ - ٥٩٤ .

وينوه الشاعر في مراثيه بطائفة من المعاني ، غدت فيما بعد من المعاني الشائعة في المراثى الأندلسية ، تردد فيها بصور مختلفة ، منها البكاء على الوطن ، وما أصاب نور الاسلام من انطفاء ، وتحويل المساجد إلى كنائس ، وعلى تشريد المسلمين عن أوطانهم ، وفقدهم لحرياتهم ، ووقوعهم في أغلال الذلة والمهانة ، وسبي نساءهم وأولادهم ، وغيرها من المعاني المؤثرة التي تتعلق بقضية الوطن والدين .

وكان من أشهر المراثى الأندلسية في ذلك العصر الذى اضطربت فيه أحوال الأندلس وظهرت عليها أسبانيا النصرانية ، وغزاها المرابطون بعد أن تظاهروا بانقاذها ، واستولوا على قواعدها وثغورها، وقضوا على دول الطوائف ، وقتلوا وأسرُوا ملوكها ، قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء دولة بنى الأفطس ملوك بطليوس ، وكانت دولتهم من أزهى دول الطوائف ، وفيها ازدهرت دولة الشعر والأدب ، وكان زعيمها وآخر ملوكها محمد بن الأفطس الملقب بالمتوكل من أكابر العلماء والأدباء . ولما استولى المرابطون على مملكته (سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م) قتلوه وأولاده الثلاثة، ووضع فيهم وزير دولتهم عبدالمجيد ابن عبدون المتوفى سنة ٤٤٩ هـ وهو من أهل يابرة مراثيه الشهيرة التي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر
ومنها :

فلا تغرنك من دنيأك نومتها فما صناعة عينها سوى السهر
مالى إلى أقال الله عثرتنا من الليالى وخانتها يد العبر
في كل حين لها في كل جارحة منا جراح وإن زانت عن البصر
تسر بالشئ لكن كي تغربه كالأيام تار إلى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها لم تبق منها وسل ذكراك من خبر^(١)

وتعتبر قصيدة ابن عبدون من غرر المراثى الأندلسية . وقد وضع لها ابن

(١) راجع قصيدة ابن عبدون بأكملها في كتاب المعجب للمراكشى ص ٤٢٠ ٤٦٠ .

بدرون المتوفى فى نحو سنة ١٠٩١ هـ وهو من أهل شلب ، شرحاً فيما طبع غير مرة ، وهى تردد كثيراً من المعانى التى جرت عليها المراثى الأندلسية فى التنويه بعبر الدهر وغدره ؛ غير أنها خلت من النواح على مصير الاسلام ؛ لأن دولة بنى الأفطس لم تسقط فى يد النصارى ولكنها اسقطت فى يد دولة إسلامية أخرى . ولما أخذت دولة الموحدين التى استولت بعد المرابطين على بلاد الأندلس فى الضعف والانحلال منذ أوائل القرن السابع الهجرى ، وأخذت القواعد الأندلسية الكبرى تسقط تبعاً فى أيدي النصارى ، ذكت دولة الشعر واضطربت لوعتها ، وكل سقطت قاعدة أندلسية توالى فى نديها القصائد المؤثرة . وتجتمع فى هذه الفترة بالذات معظم المراثى الأندلسية الجامعة ، وكلها تبكى محنة الأندلس وبصير قواعدها فى بلاغة رائعة ، وأسلوب يفيض بالآلام والحسرات .

فمن ذلك قصيدة ابن الأبار القضاعى البلنسى وقد نظمها حينما دهم النصارى بلنسية (سنة ١٢٣٥ هـ - ١٢٣٧ م) وأوفده أميرها أبو جهيل زيان سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى سلطان تونس يستغيث به ويستنصره ، نأشد ابن الأبار قصيدته بين يدي السلطان ، وفيها يعرض نحن الأندلس وصريرها بأسلوب رائع ينفذ إلى سويداء القلوب ، وهذه بدايتها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً وهب لها من عزيز النصر ما التمتست وحاش مما تعانيه حشاشتها يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً فى كل شارقة إمام بائقة وكل غاربه أنجبال شائبة تقاسم الروم لانا لى مقاسمهم وفى بلنسية منها وقرطبة مدائن حلها الاشرار مبتسماً وصيرتها العواذى الغائشات بها	إن السبيل إلى منجاتها رسا فلم يزل منك عز النصر ملتصاً فطالما ذاقت البلوى صباح مساءً للحادثات وأسى جدها تعسا يعود مأثمها عند العدا عرساً تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى إلا عقائلها الحجبوية الأنسا ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا جدلان وارتحل الايمان مبتسماً بستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا (١)
--	--

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها . وفى أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٧ وما بعدها .

وقصيدة ابن الأبار هذه من أشهر القصائد الأندلسية السياسية . وفي مطلعها يتردد المغزى التاريخي الذي لبث أحقاباً يجمع بين الأندلس والمغرب ، ويؤكد ما بينهما من وشائج القربى والتضامن ، كما يؤيد حتى الأندلس في طلب العون والغوث من إخوانها فيما وراء البحر ، في عدوة المغرب ، كلما لاح لها شبح الخطر الداهم على يد عدوتها الخالدة أسبانيا النصرانية . وقد لبث هذا التضامن شعار السياسة الأندلسية مذ شعرت الأندلس بضعف كفتها في الجزيرة الأسبانية . ولما انهارت دوله الموحدين وقامت مكانها بالمغرب دولة بني مرين اتجهت مملكة غرناطة الناشئة بأنظارها إلى تلك الدولة المغربية الجديدة ، ولبثت أكثر من قرن تكرر إليها الصريخ كلما اشتدت عليها وطأة العدو ، واستجاب بو مرين لصريخها فعبروا البحر إلى الأندلس لانجادهـا مراراً .

ولما سقطت بلنسية في يد النصارى (صفر ٦٣٦ هـ) عاد صريخ الأندلس يتردد عالياً بطلب الغوث والنجدة من سلطان تونس ابن زكريا الحفصى ، وعاد الشاعر يردد معنى ابن الأبار في مراثية أخرى ييكي فيها سقوط بلنسية وبصائب الاسلام بالأندلس ، وإليك مطلعها :

نادتك أندلس قلب نداءها	واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاجها	من عاطفتك ما يفى حواءها
واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها	تردد على أعقابها أرزاءها

ومنها :

تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا	لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها	واغمد بأرشيعة النجاة رشاءها
أشنى على طرف الحياة ذماؤها	فاستبق للدين الخفيف ذماءها
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد	قصرت عليك نداءها ورجاءها (١)

وكان سقوط بلنسية نذيراً بانتهيار قواعد الأندلس الشرقية كلها وسقوطها تبعاً في يد النصارى ، فسقطت شاطبة ودانية في سنة ٦٣٨ هـ ، ولقنت وأريولة

(١) راجع هذه القصيدة في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٩ وما بعدها .

وقرطاجنة في سنة ٦٤ هـ ، ومرسية في سنة ٦٤١ هـ . وأما في الولايات الشرقية فقد سقطت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة في يد النصارى في سنة ٦٣٣ (١٢٣٠ م) وبإسبانية وأستجة والمدور في سنة ٦٣٤ هـ ، وجيان في سنة ٦٤٤ هـ ، وأشبيلية أعظم القواعد الأندلسية في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٦ م) . وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجري حتى كانت معظم بسائط الأندلس وقواعدها الثالثة قد سقطت في يد أسبانيا النصرانية في وابل من الهزائم والحن الفاجعة ، وائكمشت رقعة الوطن الأندلسي التي كانت حتى أوائل القرن السابع تضم نحو نصف الجزيرة الأسبانية ، إلى حيز ضيق يقع في أواسط جنوبى الأندلس فيما بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وهو الحيز الذى استطاعت مملكة غرناطة الصغيرة الفتية أن تستقر فيه وأن تتوطد . وقد شاعت العناية الالهية أن تسبغ بقيام هذه الدولة الاسلامية الصغيرة على الأندلس حياة جديدة استطالت أكثر من قرنين .

وقد لبثت مملكة غرناطة التى نشأت في كنف المحنة وفي غمر الفوضى قبل أن تتوطد دعائمها ، مدى حين مطمح أنظار أسبانيا النصرانية ، وكان القضاء عليها يلوح أمراً ميسوراً محققاً ، حتى إن زعيمها ومنشئها محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر لم ير مناصاً من الخضوع لملك قشتالة والاعتراف بطاعته ، وأداء الجزية له استبقاء لسلطانه ، واحتفاظاً بأراضيه . واضطر ابن الأحمر أن يجرع الكأس المرة إلى الثالثة ، وأن يعاون النصارى وقتاً لتعهداته غير مرة في الاستيلاء على القواعد والشغور الاسلامية الخارجة عن حوزته ، فعاونهم في الاستيلاء على أشبيلية وعلى قادس وشذونة وغيرها ، واضطر بعد ذلك في سنة ٦٦٥ هـ أن يشتري مهادنة ملك قشتالة ومسالمته بالنزول له عن عدد كبير من القواعد والحصون ، منها شريش وندينة والقلعة وغيرها . وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع معظمها في غربى الأندلس . وكان لهذه المواقف والتضحيات المؤلمة أعمق وقع في الأمة الأندلسية ، وكانت ترى يومئذ نذر السقوط النهائى ماثلة في الأفق تكاد تنقض عليها في أية لحظة .

وقد أثارت هذه الحن التى توالى على الأندلس في تلك الفترة المظلمة من تاريخها ، أعنى أواسط القرن السابع الهجري ، لوعة الشعر والأدب . ونظم

شاعر العصر أبو البقاء صالح بن شريف الرندى مريثته الشهيرة التى مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض هم المسلمين أهل العدو لانجساد الأندلس وغوثها . وإليك بعض ما جاء فى هذه المريثة الشهيرة التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شئ إذا ما تم نقصان
هى الأمور كما شاهدتها دول
وهذه الدار لا تبقى على أحد
يمزق الدهر حتما كل سابغة

فلا يغرب بطيب العيش إنسان
من سره زمن ساءته أزمان
ولا يدوم على حال لها شان
إذا نبت مشرفيات وخرصان

فجائع الدهر أنواع متنوعة
وللحوادث سلوان يهونها
دهى الجزيرة أسر لاعزاء له
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين قرطبة دار العلوم فكم
وأين حمص وما تحويه من نزه
قواعدكن أركان البلاد فما
تبكى الحنيفة البيضاء من أسف
على ديار من الاسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى المحاريب تبكى وهى جاسدة

وللزمان مسرات وأحزان
وما لما حل بالاسلام سلوان
هوى له أحد وانهد ثملان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذب فياض وملاآن
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
كما بكى لفراق الالف هيمان
قد أفقرت ولها بالكفر عمران
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المنابر ترقى وهى عيدان

أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم

فقد سرى بحديث القوم ركبان
أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
وأتم يا عباد الله إخوان (١)

(١) راجع هذه المريثة البليغة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ وأزهار الرياض ج ٢ ص ٤٧ - ٥٥ .

وما زالت مراثية أبي البقاء رغم توالى العصور عنواناً لمحنة الأندلس . بيد أن هناك خطأ شائعاً حول العصر الذى عاش فيه صاحبها ، وحول الظروف التى قيلت فيها . والفكرة الدائنة هي أنها قيلت فى سقوط الأندلس النهائى أو على الأقل قبيل نهاية الأندلس بقليل . وقد وقع المقرئ صاحب نفح الطيب فى هذا الخطأ ، فوصف ناظمها صالح بن شريف فى كتابه أزهار الرياض بأنه خاتمة أدباء الأندلس (١) وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إلى القصيدة تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرها ، وهى ليست من نظم صاحبها لضعفها بالنسبة لروعة القصيدة ، ولأن أبا البقاء توفى قبل سقوط غرناطة (٢) وهو مما يدل على اعتقاد المقرئ بأن أبا البقاء عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أننا عثرنا فى كتاب « الذخيرة السننية فى تاريخ الدولة المرينية » على ما يبطل هذا الخطأ الشائع . وقد وضع كتاب « الذخيرة السننية » مؤلف مغربى مجهول عاش فى عصر السلطان ابن سعيد المرينى (٧١٠ هـ - ٧٣١ هـ) وأورد فيه قصيدة أبي البقاء برمتها وذكر أنه وضعها لمناسبة نزول ابن الأحمر لملك قشتالة عن عدد كبير من القواعد والحصون الأندلسية فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) (٣) . وإذن فقد كانت مراثية أبي البقاء معروفة ذائعة منذ أواخر القرن السابع الهجرى ، وقد عاش أبو البقاء فى هذا العصر أو قريباً منه ، فى أوائل أيام مملكة غرناطة . ويبدو فوق ذلك من سياق القصيدة وذكر القواعد الأندلسية التى تندبها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وأشبيلية ، وهى القواعد التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنتي ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ أنها قيلت فى المحنة الكبرى التى فقدت الأندلس فيها معظم قواعدها القديمة . والظاهر أن المقرئ لم يطلع فى عصره على كتاب « الذخيرة السننية » بالرغم من اطلاعه على كثير من المصادر والوثائق الأندلسية الأخرى التى كانت معروفة فى عصره ولم تصل إلينا . وعاشت مملكة غرناطة بعد ذلك زهاء قرنين تحمل بقية التراث الأندلسى ، بيد أنها كانت ضعفة مهينة يهتز مصيرها فى مهب الريح ، وترقب المصير

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ .

(٣) راجع كتاب « الذخيرة السننية » (الخبراء سنة ١٩٢٠) ص ١٢٧ .

المحتوم يلوح لها بين آونة وأخرى . وكان سقوط غرناطة آخر القواعد الأندلسية في يد النصارى في سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) خاتمة احتضار طويل الأمد . ومع ذلك فقد كانت لمحنة الأندلس المؤلة ونهايتها المحزنة وقع عميق في جنبات العالم الاسلامي ولا سيما في أمم المغرب في الضفة الأخرى من البحر . غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر كما أثارت من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية أيام كان للدولة الاسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسي كانت قد انهارت منذ بعيد ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت في رثاء الأندلس نثقات مؤثرة . ومن أشهر المراثي التي نظمت عقب المحنة بقليل رثاء مؤثر لشاعر أندلسي مجهول يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها إلى نهايتها . وإليك بعض ما جاء في تلك المراثية المشجية التي رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

وقد كسفت بعد الشمس بدورها
ودارت عليكم بالصروف دهورها
وكانت إلى بيت الحرام شطورها
إذا سمرت يسبي العقول سفورها
وقد هتكت بالرغم منها ستورها

وحق لديها محوها ودثورها
مدائنها موتورة وثغورها
وأحجارها مصدوعة وصخورها
ملابس حسن كان يزهو حبورها
قد استقرغت ذبحاً وقتلا حجورها
وفي سريان الداء بان قطورها
فقد خف نادياها وجف نضيرها
قد ارتج بادياها وضج حضورها
هي الحضرة العليا زهتها زهورها
ومنبرها مستعبر وسريرها
دهاها وأنى يستقيم شعورها

أحقا خبا من جورندة نورها
أحقا أخلاي القضاء أبادكم
فوا حسرتنا كم من مساجد حولت
وكم طفلة حناء فيها مصونة
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة

لأندلس ارتجت لها وتضعضت
منازلها مصدورة وبطاحها
تئاتمها مفجوعة ونجودها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
فالقة الحناء شكلى أسيفة
وبلّش قطت رجلها بيعينها
وبالله ان جئت المنكب فاعتبر
الا ولتقف ركب الأسى بمعال
محل قرار الملك غرناطة التي
تردى الأسى أعلامها وهى خشع
وبسطة ذات البسط ماشعرت بما

وما أنس لا أنس المرية إنها قيلة أذجال أزيل عذورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصاب منار الدين فانهذ ركنه وزعزع من أكنافه مستطيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عزائماً على الله في ذاك النعيم مهورها (١)

ونلاحظ أن الشاعر استهل مراثيته بذكر المرية وهي أول قاعدة أندلسية سقطت في حرب غرناطة الأخيرة ، وكان سقوطها في يد النصارى في سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ثم تلها باقي القواعد التي ورد ذكرها في القصيدة تباعاً ، كما نلاحظ أنه يردد كثيراً من المعاني التي وردت في مراثية أبي البقاء الرندي ، من انطفاء نور الاسلام في القواعد الذاهبة ، وسي المحصنات بصور مثيرة ، وأمثالها من المعاني التي لا تكاد تخلو منها أية مراثية أندلسية .

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب في الضفة الأخرى من البحر طائفة كبيرة من المراثى البليغة في لعي الأندلس والاشادة بفضائلها ، والبكاء على محنتها وفداحة الخطب الذي نزل بها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير الفاجعة عن إخوانهم في الأندلس ، أشد من غيرهم تأثراً بالحنة وأكثرهم إفاضة في نذب ويلات (٢)

محمد عبد الله عنانه

- (١) نشر هذه المراثية وهي في أكثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر مقرونة بترجمة فرنسية تحت عنوان *Une élégie andalouse sur la guerre de Grenade* وذكر الناشر أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ في شعبان سنة ٨٩٧ هـ (يونيو سنة ١٤٩٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بيضعة أشهر . والظاهر أنه حينما وضعت هذه القصيدة كان الاسبان قد بدأوا محاولاتهم الأولى لتنصير المسلمين .
- (٢) نقل إلينا المقرئ في أزهار الرياض بعض هذه المراثى المغربية ، ومن ذلك قصيدة أعد بن محمد الصنهاجي المشهور بالدقون (ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها)